القضية التداولية في الخطاب القرآني التفسيري
"محاسن التأويل للقاسمي أنموذجا " دراسة في القول و المعنى

الأستاذ عبد المالك بلخيري
جامعة الجلفة

مدخل تمهيدي

عادة ما يتم مناقشة مصطلح الخطاب ضمن محاور لسانية تتعلق بالجملة و النص و اللسان ، و في هذا السياق يقول **أحمد المتوكل** : " يختلف الخطاب في اللغات الطبيعية من حيث حجمه ، فيرد جملة أو سلسلة من الجمل أو نصا متكاملا كما يختلف من حيث نمطه فيكون خطابا سرديا أو خطابا وصفيا أو خطابا حجاجيا أو خطابا فنيا أو خطابا علميا إلى ذلك من الأنماط الخطابية المعروفة . " [1] كما يفسر في موضع أخر على أنه عبارة عن وحدات تساوي أو أكبر من الجملة و يحمل رسالة لها بداية و نهاية [2] كما طرح التفريق مابين الجملة والخطاب في النظرية اللسانية الحديثة على الأسس المنهجية وذلك باعتبار أن اللسانيات تعتمد على الجملة كوحدة أساس للتحليل اللساني، وفي هذا السياق يقول **أحمد المتوكل** : " تمت المقابلة داخل النظريات اللسانية الصورية –النظرية التوليدية التحويلية مثلا– بين الجملة والخطاب على أساس أن الجملة مقولة صرفية – تركيبية صورية .....عدت بهذا التحديد موضوع الوصف والتفسير اللغويين. أما الخطاب فقد ميز عن الجملة في هذا النمط من النظريات باعتباره يتسم بسمتين: تعديه للجملة من حيث حجمه وملابسته لخصائص غير لغوية دلالية و تداولية و سياقية . " [3]

إن هذه العلاقة التي تتأسس مابين الخطاب و الجملة ، فهي علاقة قائمة على مجموعة من الفرضيات و يمكن تبيين ذلك على النحو الآتي :

أ- يفسر الخطاب في مواضع على أنه يساوي أو أكبر من الجملة .

ب-الفرق مابين الخطاب والجملة ، أنه يحتوي على رسالة ، تحمل جملة من القضايا و المقاصد .

ج- يمكن ملاحظة سمات التمايز بين الجملة و الخطاب ، فالخطاب يتضمن جملة من الخصائص اللغوية وغير اللغوية كالسياق ، و المظاهر التداولية التي تميزه عن الجملة التي تعتمد على المكونات اللغوية فقط كالدلالة ، والنحو ، والمعجم .

بعد مناقشة بعض الفروق المنهجية مابين الجملة و الخطاب ، فقد تم مناقشة الخطاب في إطار مقارنته باللسان ، فالخطاب في إطار اللغة يعرف على أنه حركة ، أما اللسان فهو موضوع الكلام (4) وقد وضح **غاردنر** بطريقة لطيفة الفرق مابين الخطاب واللسان وفي هذا يقول **ديكرو** : " فلئن انطلق **سوسير** ، من اللسان ليحد الكلام ، فإن **غارندر** اتخذ الاتجاه المعاكس فانطلق من الخطاب ليصف اللسان ، **فالخطاب، عنده ، نشاط إنساني ، منطلقه عموما حدث مخصوص أو مثير يتواصل بواسطته متكلم ما مع مخاطب ، مستعملا إشارات لفظية منظمة حسب شفرة مشتركة .أما اللسان فهو تحديدا مجموع المعارف التي تتعلق بهذه الشفرة و بهذه الإشارات وتسمح بالتواصل.** و **الجملة** حسب **غاردنر** ، و هي وحدة الخطاب أما **الكلمة** فهي وحدة اللسان." (5)، إن هذا القول يضعنا أمام مقاربتين منهجيتين توقف عندهما البحث اللساني الحديث وهما :

أ-مقاربة لسانية وصفية : قامت على دراسة اللسان وذلك من خلال البحث في مكوناته ، وعمدت إلى التميز مابين اللسان والكلام ، و اعتبرت الأول هو الأساس .

ب–مقاربة لسانية تداولية : اعتمدت على نظرية الخطاب لوصف اللسان و هذا ما نجده في قول **غادنر** .

1–مفهوم الخطاب و أنماطه

1/ 1– مفهوم الخطاب : يعرف الخطاب باعتباره " اللغة المستعملة " [6] و على أنه " وحدة تعادل أو تعلو الجملة"[7] وأنه " كل تلفظ أكبر من الجملة . " [8] كما " يطلق في بعض الحالات على الفعل الذي بواسطته يتوجه المتكلم إلى غيره من الناس . " [9] ويعرف من جهة أخرى على أنه " سلسلة من الملفوظات خاضعة لنظام يضبط العلاقات السياقية و النصية بين الجمل . " [10]

إن الخطاب بهذا التصور ارتبط بمجموعة من الشروط التي تحدده و هي :

أ–يعتبر الاستعمال الآلية التي تتحقق من خلالها لغة المتكلم ، فالخطاب يتعلق بالمنجز من عبارات المتكلم وذلك بتحقق شرط الاستعمال .

ب–حاول الخطاب تجاوز حدود الجملة من حيث الشكل و المضمون ، فمن حيث الشكل فالناس تتحاور عادة بالخطاب و ليس بالجمل ، و من حيث المضمون فالخطاب له مضامين لغوية ، و معرفية تتجاوز الجملة .

ج–الخطاب عبارة عن مجموعة من الملفوظات ، و المنجزة من طرف ذات متكلمة في سياقات و مقامات ، و ظروف مخصوصة .

د–الخطاب يتأسس على عبارات المتكلم ، وظروفها السياقية و النصية .

وفي السياق نفسه جاء مفهوم الخطاب عند **أحمد المتوكل** حيث يقول : " يعد خطابا كل ملفوظ / مكتوب يشكل وحدة تواصلية قائمة الذات . يفاد من التعريف ثلاثة أمور :

أولا : تحييد الثنائية التقابلية جملة / خطاب حيث أصبح الخطاب شاملا للجملة .

ثانيا : اعتماد التواصلية معيارا للخطابية .

ثالثا : إقصاء معيار الحجم من تحديد الخطاب حيث أصبح من الممكن أن يعد خطابا نص كامل أو جملة أو مركب أو ما أسميناه في مكان آخر المتوكل 2005 شبه الجملة . " [11] من خلال قول **أحمد المتوكل** نجد أن نظرية الخطاب تأسست في إطار مقاربتين :

أ–مقاربة لسانيات الجملة : فقد كانت المنطلق النظري الذي على أساسه تمكن علماء الخطاب ، من صياغة جملة الشروط التي تميز الخطاب عن نظرية الجملة هذا من جهة ، و من جهة أخرى فالخطاب شاملا للجملة .

ب–مقاربة تواصلية : فالخطاب يتحدد على مبدأ التواصل ، و الذي يحتكم إلى معايير السياق ، و قوانين التخاطب .

2/ 2أنماط الخطاب : تمت مناقشة أنماط الخطاب عند **أحمد المتوكل** على أساس التصنيفات الآتية : [12]

أ– تصنيف قائم على أساس موضوع الخطاب .

ب–تصنيف وفق بنية الخطاب

ج– وتصنيف قائم على مبدأ آلية المعالجة للخطاب .

وضمن هذا التقسيم للأنماط التي أخذها الخطاب يقول **أحمد المتوكل** : "يقترح التنميط التقليدي المتوارث للخطابات تصنيفا منطلقا فيه من أحد المعايير التالية : **الموضوع و الآلية و البنية.**

1–تصنف الخطابات من حيث موضوعها إلى خطاب ديني ، و خطاب علمي و خطاب إيديولوجي أو سياسي .....

2–وتصنف الخطابات من حيث بنيتها داخل ما يسمى – الخطاب الفني – – الإبداعي ، الأدبي– إلى قصة ورواية وقصيدة شعر و غيرها .

3–أما من حيث الآلية المشغلة فيميز بين الخطاب السردي والخطاب الوصفي و الخطاب الحجاجي . " [13]

إن هذه التصنيفات التي أخذها الخطاب في تصور **أحمد المتوكل** ، تحيلنا بالضرورة على مناقشة **مفهوم الخطاب الديني** وأهم الشروط اللسانية والمعرفية المتحكمة في بنائه.

2–الخطاب الديني ومفهوم القصدية

2/ 1–مفهوم الخطاب الديني : من خلال تصنيفات **أحمد المتوكل** لأنماط الخطاب يمكننا النظر لمفهوم الخطاب الديني وفق التصورين التالين :

أ–تصور قائم على الموضوع : و يمكننا ضمن هذا التصور المؤسس على الموضوع تحديد هوية الخطاب الديني ، فعادة يتميز الخطاب الديني ، بأنه خطاب يتحدد بجملة المضامين العقدية ، والشرعية ، والأخلاقية ، وشتى العلوم الأخرى سواء اللغوية أو العلمية التي تدخل في بنائه .

ب–تصور قائم على الآلية : فالخطاب الديني يمكننا النظر إليه على أساس الطريقة التي يتوسل بها المفسر من أجل تفسير وتأويل، أهم الدلالات، والمقاصد التي يحملها الخطاب القرآني، وفي هذا السياق فقد عدت علوم التفسير من الآليات المساعدة في تفسير الخطاب القرآني،

فالخطاب التفسيري للقرآن الكريم ، يمكننا أن نصنفه في الخطابات الدينية . وفي هذا السياق يقول **محمد الطاهر بن عاشور**: "معلوم لك **أن موضوع علم التفسير هو القرآن** لتبيان معانيه و ما يشتمل عليه من إرشاد و هدى وآداب و إصلاح حال الأمة في جماعتها و في معاملتها مع الأمم التي تخالطها : بفهم دلالته اللغوية و البلاغية . فالقرآن هو الكلام الذي أوحاه الله تعالى كلاما عربيا إلى محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل على إن يبلغه الرسول إلى الأمة باللفظ الذي أوحى به إليه للعمل به و لقراءة ما يتيسر لهم أن يقرأوه منه في صلواتهم وجعل قراءته عبادة ." [14] ، و فق منظور العلامة **الطاهر بن عاشور** فقد عد التفسير علم موضوعه القرآن الكريم لتبيان معانيه ، ومقاصده ، فالموضوع الذي يميز الخطاب الديني أنه خطاب يتضمن مجموعة من المضامين ، والتي تتمثل في أمور عقدية وشرعية وأخلاقية إضافة لبعض المضامين ، اللغوية و البلاغية و المعرفية و العلمية .

و في سياق الحديث عن طبيعة الخطاب الديني ، فهناك من الباحثين من عمد إلى تصنيف الخطابات إلى صنفين، قائم هذا التقسيم على ما هو ديني، وبشري ، و في هذا الإطار قدم شروط الحذر المنهجي في التفرقة و التمييز في قراءة النص الديني ، والنص البشري، والحذر المنهجي في التعامل مع بعض النظرية الغربية وخاصة في قراءة الخطاب الديني ، و في هذا السياق يقول **يحي محمد**: "بادئ ذي بدء، لا بد من التفرقة و التمييز بين القراءة الخاصة بالنص الديني والقراءة المتعلقة بالنصوص البشرية ، كالتي وردت في الأدبيات الغربية ، وذلك من منطلق أن اغلب الذين تناولوا النص ، سيما الأدبي وسائر الأعمال الفنية، إنما أرادوا ذلك بمعزل عن قصد المؤلف أو صاحب النص ،

وقد دفعهم هذا العمل للبحث عن إمكانات الدلالة التي يمكن أن يتضمنها النص حتى لو كانت خارج دائرة قصد المؤلف . " [15]

إن الذي يمكن استخلاصه من قول **يحي محمد** أن :

أ- إن النصوص يمكن تصنيفها إلى ضربين من النصوص ، نصوص دينية ، ونصوص بشرية .

ب- قدم تحذيرات منهجية في قضية التمييز مابين قراءة النص الديني، والنص البشري، لأن الأول يتميز بمجموعة من الشروط ، والخصائص التي يجب الحفاظ عليها و الالتزام بها ، بحيث لا يكون الهدف من قراءة النص الديني هو الحصول على الدلالات غير المتناهية ، والوصول للمتعة الفنية كما هو الحال حاصل في التقاليد الغربية ، بل يجب التقيد بشروط عقدية، وشرعية، وأخلاقية، وهذا ما نجده عند علماء التفسير، فقد وضعوا الضوابط الشرعية في تفسير القرآن الكريم ، ويمكن مراجعة هذا الأمر في كتب التفسير **كتفسير التحرير والتنوير للعلامة الطاهر بن عاشور، ومحاسن التأويل للقاسمي** ، و **أضواء البيان للشنقيطي** .

ج- فالنص الديني يحتكم إلى مجموعة من المقاصد العقدية ، والشرعية، والأخلاقية التي لابد من الحفاظ عليها، و تحصيلها أثناء قراءته ، فالقصدية ، أو ما يعرف عند الأصوليين بعلم المقاصد تعتبر من أهم المباحث التي تؤطر النص الديني. وتقسيم علم المقاصد في تصور **طه عبد الرحمن** يشتمل على نظريات ثلاث حيث يقول:"علم المقاصد هو على الحقيقة علم يشتمل على نظريات ثلاث لم يقع التفطن إلى الفروق بينها إلى حد ، الآن و هي :

أ–نظرية المقصود : و تتعلق بدلالات الكلام من جهة اتصافها بوصفين أخلاقيين : الوصف المعنوي و الوصف الفطري .

ب– **نظرية القصد** : وتتعلق بمظاهر الشعور من جهة اتصافها بوصفيين أخلاقيين هما : الوصف الإرادي ، والوصف التجردي .

ج–**نظرية المقصد:** و تتعلق بمضامين القيم من جهة اتصافها بوصفين أخلاقيين هما : الوصف الحكمي و الوصف المصلحي . " (16)

إن قول **طه عبد الرحمن** في تصنيفه للنظرية القصدية ، يحيلنا إلى جملة من الاستنتاجات و هي :

أ– فنظرية المقصود ، فهي تتعلق بعبارة المتكلم .

ب–نظرية القصد ، تتعلق بتصورات الذهن .

ج–نظرية المقصد ، فتعلق بجملة من المضامين ، والتي تتأسس على القيمة والمنفعة .

د–إن هذه النظريات الثلاث ، يؤطرها علم الأخلاق ، و بالتالي كان لعلم الأخلاق الأثر في علوم الأصول وفي هذا السياق يقول **طه عبد الرحمن** : " علم المقاصد علم أخلاقي موضوعه الصلاح الإنساني . " (17)

2/ 2– **مفهوم النظرية القصدية** : تتأسس النظرية القصدية عند **طه عبد الرحمن** في مشروعين : هما علم الأصول وعلم الأخلاق ، وفي هذا السياق يقدم لنا مجموعة من المفاهيم الخاصة بتعريف القصدية من منطلق تعريفه للفظ المقصد .

أ–"اعلم أن لفظ المقصد لفظ مجمل نحتاج إلى تفصيل معانيه ، هذا التفصيل الذي لا نعلم أن أحدا من الأصوليين المتقدمين، ولا ، بالأولى ، من المتأخرين قام به على مقتضاه اللغوي و المنطقي." (18)

ب-" المقصد بمعنى المقصود ، قد يفيد لفظ المقصد بمعنى المقصود ، إذ يقال مقصد القول ، و المعنى بالذات هو مقصود القول ، أي المراد منه ، فالمقصود هنا يكون بمعنى **المضمون الدلالي** المراد للقائل في سياق الكلام أو مقامه ، و إذ خلا القول من هذا المقصود الدلالي ، كان **لغوا** ، .... ، و على هذا ، فإذا قيل **مقاصد الشريعة** فقد يكون المعنى هو **مقصودات الشريعة** ، أي المضامين الدلالية المرادة للشارع بأقواله التي يخاطب بها المكلفين."(19)

ج-" المقصد بمعنى القصد ، قد يفيد لفظ المقصد أيضا معنى القصد ، إذ يقال مقصود القول ، و المعنى بالذات هو قصد القائل ، أي النية التي يصدر عنها القائل و تصدر منه ، فالمقصد هنا بمعنى **المضمون الشعوري** للقائل الذي يصاحب مدلول قوله في سياق الكلام أو مقامه، و إذا خلا هذا القول من هذا المضمون الشعوري كان **سهوا** ، و على هذا ، فإن قيل : **مقاصد الشريعة** ، فقد يكون المعنى هو **قصود الشارع و قصود المكلف** ." (20)

د-"المقصد بمعنى الغاية ، و أخيرا قد يفيد لفظ المقصد معنى **الغاية المرغوب فيها** ، فيقال **مقصد القول** ، و المعنى بالذات هو الغاية التي يهدف إليها القائل من قوله و يريد تحقيقها ، أي القيمة التي يتوجه إليها القول وتوجهه ، فيكون المقصد هنا بمعنى **المضمون القيمي** الذي يقرن به المتكلم مدلول قوله في سياق الكلام أو مقامه ، و إذا **خلا القول من هذا المضمون القيمي** كان **لهوا** – أو قل عبثا أو جزافا ، و على هذا فإذا قيل : مقاصد الشريعة فقد يكون المعنى هو قيم الشريعة وقد عبر الأصوليون عن هذا المعنى الثالث بلفظ المصلحة فالقيمة و المصلحة اسمان لمسمى واحد بعينه ، و هو معنى يصلح به حال الإنسان . " (21)

إن هذا التقسيم الذي أخذه **مصطلح المقصد** عند **طه عبد الرحمن** ، يتأسس على شرط أساسي و **هو ظهوره في القول** ، و هذا راجع لأسباب منهجية منها أن بنية الخطاب في الأقوال أو العبارات ، وعليه فإنه يمكننا تقريب هذه المصطلحات الواردة في مشروع **طه عبد الرحمن** على النحو الآتي :

أ–للقول المضمون الدلالي ، والمقصود معين، و فق شروط سياق الكلام و مقامه تحدد المقصد من القول ، و خروج القول عن دائرة اللغو ، فاللغو ومفهومه في نظرية المقصد المتعلقة بالمقصود فإنها تتحقق بالمضمون الدلالي ، **فكل الأقوال الفارغة من المضامين الدلالية في الخطاب الشرعي في إطار علم المقاصد ، فهي خطابات لم تحقق المقصد و المقصود من القول ، فبهذا الرأي فقد عدت الدلالة و مضمونها المرتبط بالسياق و المقام من أهم الشروط في قراءة النص الشرعي و في النظرية القصدية** .(22)

ب–و قد ارتبط المقصد بالمقصود من قول المتكلم و الذي يرتبط بسياق الكلام و مضمونه ، و يتحكم إلى مضمون شعوري ، **فإذا افرغ القول من المضمون الشعوري كان سهوا ، فالسهو في نظرية الخطاب الشرعي ضمن علم المقاصد و التي تتأسس على القول القائم على المضمون الشعوري** .(23)

ج–ارتبط كذلك المقصد بالغاية المتحققة من القول ، فإذا افرغ القول من غايته ، دخل في دائرة اللهو ، **فمفهوم اللهو في الخطاب الشرعي في علم المقاصد يتأسس على مضمون الغاية التي تتضمنها الأقوال حال إنتاجها في الخطاب .** (24)

ومن هذا المنطلق فيمكننا القول إن النظرية المقصدية في الخطاب ، تأسست في بنية القول و تحتكم إلى الشروط السياقية المتعلقة بالكلام و مقامه

، و نحن لما نناقش هذا الأمر أي القصدية و علاقتها بالقول و سياقه و مقامه ، فذا راجع لدواعي منهجية ، منها تناولنا لنظرية الخطاب هذا من جهة ، و من جهة أخرى هي محاولتنا القائمة على تناول قضية القول والمعنى في القضية التداولية ، و محاولتنا لدراسة ذلك في مدونة تفسيرية للقرآن الكريم والموسومة ب **"محاسن التأويل للقاسمي أنموذجا"**

3/ مفهوم الخطاب التداولي : و ضمن هذا العنوان فإننا نتقيد ببعض الشروط المنهجية ، منها سنتطرق إلى مفهوم القضية التداولية ، و أهم الآليات التي اعتمدتها في تحليل الخطاب في بعده التداولي، وأهم الأدوات اللسانية وغير اللسانية المساعدة في تحليل الخطاب ، كما نتطرق إلى أهم مظاهر التحليل التداولي و القائمة على القول و المعنى .

3/ 1– مفهوم القضية التداولية : تتحدد التداولية بأنها استعمال اللغة ، كما تدرس أهم العوامل المؤثرة في إنتاج التلفظ ، و تدرس العلاقة القائمة مابين التلفظ و القائل و المتلقي ، و العالم الخارجي . (25) ، إذا كانت اللسانيات البنوية تدرس نظام اللسان ، في المقابل فالمقاربة التداولية أعطت أهمية للمتكلم و السياق ، و اقترحت النماذج التفسيرية و العوامل المؤثرة في بناء دلالة تلفظ .(26) كما تتناول التداولية في تصور **طه عبد الرحمن** العلاقة مابين الدوال ومدلولاتها و الدالين بها ، و أغراض الكلام ، وباب مقاصد المتكلمين ، وباب قواعد التخاطب و في هذا السياق يقول : " التداوليات هي الدراسات التي تختص بوصف – و إن أمكن بتفسير العلاقات التي تجمع بين الدوال الطبيعية و مدلولاتها و بين الدالين بها ، و قد كانت أكثر استفادتنا في هذا البحث من قسم التداوليات في أبوابه الثلاثة : باب أغراض الكلام و باب مقاصد المتكلمين و باب قواعد التخاطب ." (27) .

إذا كانت التداولية في مفهومها تعتمد على دراسة الكيفية التي بواسطتها تنجز بها اللغة في الواقع ، من خلال البحث في العلاقة المؤسسة بين القائل والسامع في مقام معين ، فإنها عادة تبحث في العوامل المؤثرة على عبارة المتكلم أثناء تلفظه بها ، و عادة تتضمن هذه العوامل الجوانب الاجتماعية والنفسية و الثقافية المؤثرة في عبارة المتكلم . إلا أن **طه عبد الرحمن** حاول استثمار الدرس التداولي في دراسة بعض القضايا المتعلقة بدراسة الخطاب في بعده التراثي والخطاب في بعده الشرعي و خاصة في علم مقاصد الأخلاق وعلم مقاصد الشريعة . في المقابل من هذه المفاهيم الخاصة بالتداولية فقد عرفت عند **جاك موشلر و آن ريبول** " تعرف التداولية بأنها دراسة استعمال اللغة مقابل دراسة النظام اللساني الذي تعنى به تحديدا اللسانيات . وإذا تحدثنا عن استعمال اللغة فلأن هذا الاستعمال ليس محايدا ، من حيث تأثيراته ، في عملية التواصل ولا في النظام اللغوي في حد ذاته فمن نافل القول ، فعلا ، أن نشير إلى أن بعض الكلمات – المشيرات الدالة على الزمان أو المكان أو الأشخاص من قبيل الآن و هنا و أنا – لا يمكن تأويلها إلا في سياق قولها ."(28) إن هذا القول يحيلنا إلى مناقشة بعض الفوارق المنهجية مابين اللسانيات و التداولية ، و التي تتلخص في القضايا الآتية :

أ-المنهج اللساني : اهتم بدراسة نظام اللسان ، أي بوصف المكونات اللسانية ، كالصوت ، و النحو ، و الدلالة ، و المعجم .

ب-المنهج التداولي : يعمل على دراسة استعمال اللغة ، ودراسة كلمات الخطاب و تحليلها وفق السياقات و المقامات التي ترد فيها ، كما تقوم الوظيفة التداولية على تأويل الكلمات باعتبار مقاصد المتكلم ، و مقام

إنتاجها . إلى جانب هذا فقد اعتمدت القضية التداولية على جملة من الآليات اللغوية ، والآليات غير لغوية في تحليل خطاب في بعده التداولي ، وضمن هذا التصور يبين **جاك موشلر و آن ريبول** مفهوم القضية التداولية ذلك بقولهما : " تعتبر القضية التداولية إن كانت لا تتعلق ببنية اللغة و إنما تتعلق باستعمالها. وإن كان لا يجادل أحد في وجود عدوى بين بنية اللغة واستعمالها وهو أمر أثبته بوضوح الباحثون في العشريتين الأخيرتين فإنه لا يمكن حصر التداولية في هذا النوع من الظواهر اللغوية . و لهذا السبب لن نتحدث بصفة خاصة عن تداولية لسانية لأن مجال التداولية و إن كان يتعلق بصفة أساسية باستعمال اللغة فإنه يرتبط بقضايا ليست لغوية بالمعنى الضيق للكلمة مثل قضايا الاستدلال والاستعمال التقريبي و الاستعارات و الفهم المرتبط بالسياق و قوانين الخطاب . " (29)

إن فهم القضية التداولية يترتب في نظر **جاك موشلر وآن ريبول** في التمييز مابين الآليات اللغوية ، وغير اللغوية في تحليل الخطاب في بعده التداولي .

3/ 2- الآليات اللغوية و غير اللغوية في المنهج التداولي : يتحدد تحليل الخطاب في مستواه التداولي على جملة من الآليات اللغوية و غير لغوية ، والتي تظهر على النحو الآتي :

أ-الآليات اللغوية : تحتكم إلى منهج قائم على استعمال اللغة ، أي محاولة تحليل بنية اللغوية ضمن سياقها وظروفها إنتاجها في المقام ، أو بمعنى تعمل على دراسة الأقوال التي هي نتاج الجمل ، والوصول إلى معاني الخطاب التي هي نتاج الدلالة .

ب–الآليات غير لغوية : تتوسل القضية التداولية في تحليل الخطاب في بعده التداولي على بعض الوسائل غير لغوية كالسياق، والاستدلال، والفهم ، و قوانين الخطاب .

4/ الظواهر التداولية (30)

تتأسس الظواهر التداولية عند **جاك موشلر وآن ريبول** في ثلاثة ميادين، وهي ميادين تتجاوز ثنائية **شكل– معنى** وفي هذا يقولا : " نشير إلى ثلاثة ميادين من الظواهر التي تبرز ضرورة تجاوز المنوال شكل – معنى والحاجة إلى إدخال البعد التداولي و هي ظاهر تتصل بأداء القول والاستدلال والتعليمات . " (31) إن الذي يهمنا من دراسة هذه الظواهر التداولية هو الوقوف على ظاهرة القول .

4/ 1– التداولية وظاهرة القول : إن اكتشاف نشاط القول من أهم الانجازات التي توصلت إليها الدراسة التداولية في تحليل الخطاب (32) ، وفي هذا السياق يمكننا التذكير أنه من الناحية المنهجية عندما نتحدث عن القول يجب التمييز بينه و بين الجملة ويتحدد هذا في تصور **جاك موشلر وآن ريبول** من خلال قولهما حيث يقولا : " يمكن هنا أن ندرج تمييزا أساسيا مستعملا في التداولية . **إنه التقابل بين الجملة و القول** . **إن الجملة من حيث تعريفها ، موضوع لساني . فهي تحدد أساس ببنيتها التركيبية و بدلالتها التي تحسب على أساس دلالة الكلمات المكونة لها . و ضمن هذا الفهم ، فإن الجملة كيان مجرد و هي نتاج نظرية** . إلا أن المتخاطبين ، عند التواصل ، لا يتبادلون جملا بل يتبادلون أقوالا . و بالفعل ، **فقول ما يوافق جملة تتممها المعلومات التي نستخرجها من المقام الذي تلقى فيه . فالقول إذن نتاج إلقاء**

جملة ما . و إذا كانت الجملة موضوع اللسانيات فإن القول موضوع التداولية . " (33) من خلال هذا القول يمكننا استخلاص القضايا الآتية :

أ-التقابل المنهجي مابين الجملة والقول، فالجملة كيان مجرد يرتبط باللسان ، وأما القول فمرتبط بالمقام و بالاستعمال .

ب-القول ناتج عن ذات متكلمة في ظروف خاصة ، وهو نتاج جملة، أما الجملة تحتكم إلى مكونات لسانية قائمة على التركيب و الدلالة .

ج-الجملة وحدة أساس في التحليل اللساني في إطار ما يسمى بمصطلح لسانيات الجملة ، أما القول فهو يعتبر و حدة أساس في تحليل الخطاب في بعده التداولي . و في المقابل من ذلك فالقول يمكن أن يفسر بطريقتين باعتبار **موضع الذكر والنمط فكل قول له موضع ذكر و نمط** وفي هذا السياق يقول **جاك موشلر و آن ريبول** : " تجب الإشارة إلى أن القول ، إذ يعرف على أنه إلقاء لجملة ، يمكن أن يؤول بطريقتين مختلفتين : إما باعتباره موضع ذكر و إما باعتباره نمطا . فالقول موضع الذكر....نتاج مخصوص لمواضع ذكر مخصوص للجملة. ومقابل ذلك ، فإن القول نمط هو مجموع الخصائص المشتركة المرتبطة بمختلف مواضع ذكر الجملة نفسها . " (34)

إن الذي ستخلص من هذا الكلام ، إن القول يفسر بطريقتين باعتبار موضع الذكر ، و نمط القول و هذا ما سنناقشه إنشاء الله في هذا البحث في الجانب التطبيقي .

4/ 2- **التداولية و المعنى** : إذا كان القول نتاج جملة كما رأينا ، فالمعنى نتاج دلالة ، و هذا ما سنناقشه من خلال التصور الذي تقدم به **جاك موشلر و آن**

ريبول حيث يقول : " و إذا كانت الدلالة مرتبطة بالجملة فإن القول لا ترتبط به الدلالة بل يرتبط به المعنى.... و ينبغي أن تفهم دلالة الجملة هنا على أنها نتاج إرشادات لغوية تكونها التعليمات في مصطلحات **ديكرو** وتحتسب بواسطة المكون اللغوي . وبالمقابل فإن معنى القول هو دلالة الجملة تضاف إليها الإرشادات السياقية والمقامية التي تحتسب انطلاقا من المكون البلاغي . و الالتجاء إلى قوانين الخطاب هو من اختصاص المكون البلاغي الذي يوافق ما ينتج عنه معنى القول . " (35)

إن هذا المفهوم للمعنى في بعده التداولي تترتب عنه جملة من النتائج، والتي يمكن صياغتها على النحو الآتي :

أ-ترتبط الدلالة بالجملة ، في المقابل يرتبط المعنى بالقول .

ب-الدلالة و الجملة من المكونات اللغوية ، ومن الوحدات الأساسية في اللسانيات .

ج-أما المعنى و القول من المكونات الأساسية في المنهج التداولي .

د-دلالة الجملة ترتبط بإرشادات لغوية ، في المقابل من ذلك فالمعنى والقول فإنهما يرتبطان بإرشادات سياقية و مقامية .

إن الحديث عن الدلالة و المعنى ، جاء من خلال الدور المركزي الذي تحتله الدلالة في البحوث اللسانية، والفلسفية وعلم النفس، وفي هذا السياق يقول **راي جاكندوف** : " إن **المعنى** ،..... ، هو **القدح المقدس** الذي لا تسعى وراءه اللسانيات فقط ، و لكن أيضا الفلسفة وعلم النفس وعلم الأعصاب – دون ذكر مجالات أبعد كالنظرية الثقافية والأدبية . إن فهم

الكيفية التي ندل بها و نفكر مسألة حيوية في إحساسنا الحدسي بأنفسنا باعتبارنا كائنات بشرية ، و يعتبر المعنى حدسا لدى عدد من الناس المسألة المركزية في دراسة اللغة و الأكثر أهمية بكثير من فهم تفاصيل رتبة الكلمات أو الصرف . " (36)

إن التصور الذي تقدم به **جاكندوف** يحيلنا على الاستنتاجات الآتية :

أ- المعنى يعتبر جهاز مركزي في اللغة .

ب- المعنى متعدد الاختصاصات، فهو من اختصاص الفيلسوف، وعلم النفس ، و عالم الأعصاب .

ج- المعنى مقدم على النحو و الصرف في رأي **جاكندوف** ، بخلاف النظرية التوليدية التي قدمت النحو الدلالة في البنية العميقة . و هذا ما يظهر في تصور **جاكندوف** حيث يقول : " كما أشعرت من قبل ، **لم يكن للنحو التوليدي على العموم سوى القليل مما يقوله عن المعنى** ، لقد تم تطوير المساهمات المبكرة لدى **كاتز و فودور 1963- كاتز 1972** و **بير فيتش 1967- 1969** و **فينريش 1966** من بين آخرين ، في سياق **نظرية المظاهر** التي ربطت البنية العميقة مباشرة بالمعنى . " (37)

5/ دراسة تطبيقية في الظواهر التداولية- القول و المعنى- في تفسير محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي

محاسن التأويل هو مدونة في علم التفسير و المعروفة ب **بتفسير القاسمي** لصاحبها"هو محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم بن صالح بن إسماعيل القاسمي الدمشقي من سلالة الحسين بن علي رضي الله عنهما

سبط رسول الله صلى الله عليه و سلم . و لد **محمد جمال الدين القاسمي** في مدينة دمشق سنة 1283ه الموافق 1866م ، ودرس في دمشق ، وكان سلفي العقيدة لا يقول بالتقليد . انتدبته الحكومة للرحلة و إلقاء الدروس العامة في القرى و البلاد السورية ، فأقام في عمله هذا أربع سنوات من عام 1308–1312ه ، ثم رحل إلى مصر ، وزار المدينة المنورة . و لما عاد القاسمي اتهمه حسدته بتأسيس مذهب جديد في الدين ، سموه المذهب الجمالي فقبضت عليه الحكومة سنة 1313ه الموافق 1895م ، و سألته ، فرد التهمة فأخلي سبيله ، واعتذر إليه والي دمشق . بعد هذه المحنة انقطع القاسمي في منزله للتصنيف وإلقاء الدروس الخاصة والعامة، في التفسير ، وعلوم الشريعة الإسلامية ، والأدب ، ونشر بحوثا كثيرة في المجالات و الصحف . " (38)

إن الحديث عن علم التفسير وعلاقته بالخطاب يدخل في نظر بعض الباحثين ومنهم **محمد البازي** ، والذي يدرج هذا النوع من الدراسات المتعلقة **بعلم التفسير وعلاقته بالخطاب القرآني** في إطار ما يسمى **بصناعة الخطاب** (39) . و في هذا السياق يقول **محمد البازي**: "عندما نتكلم عن **صناعة خطاب التأويل ، فإننا نقصد التأويل الصناعي**، أي التأويل الذي يمارسه **أرباب صناعة التفسير** ، وليس الفهم التلقائي أو العابر الذي يمارسه كل من له علاقة ظرفية بالنصوص، وبالأخص في أطوار التعلم ، لأن أفعال التأويل يقصد منها – في مثل هذه المقامات – التمرن على الفهم ، وهو منطلق تحقق ملكات التأويل عند المبتدئين ، فالصناعة هي ما يتبقى من مهارات و ملكات لدى الصانع بعد عمليات تجريب كثيرة، تجعله يمتلك ادوات الفهم وإجراءاته " (40)

إن هذه العلاقة المؤسسة مابين علم التفسير و الخطاب القرآني و التي تدخل في صناعة الخطاب في تصور **محمد البازي** ، تحيلنا إلى مجموعة من الاستنتاجات و هي :

أ-أن علم التفسير يعتبر آلية من الآليات التي يتوسل بها المفسر للوصول لمقاصد القرآن الكريم، والوقوف على مضامينه العقدية والشرعية والأخلاقية و اللغوية و العلمية .

ب-التفسير يعتبر آلية من آليات صناعة الخطاب .

ج-التفسير في تصور **محمد البازي** يدخل في التأويل الصناعي ، أي التأويل القائم على العلم و الفهم الصحيح .

وفي هذا السياق فإننا نحاول قدر المستطاع تبيين بعض القضايا المتعلقة بالقول ، و المعنى في بعدهما التداولي ، و كيف تمت معالجتهما عند صاحب **محاسن التأويل محمد جمال الدين القاسمي** .

ففي تفسيره **لسورة الكهف ، و في الآية 19** يذهب **محمد جمال الدين القاسمي** في تفسير قوله تعالى **﴿قال قائل منهم كم لبثتم ﴾** . حيث يقول : " أي رقدتم اعترافا بجهل نفسه أو طلبا للعلم من غيره ، وإن لم يظهر كونه على اليقين **﴿قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ﴾**.

قال **ابن كثير**: كأنه كان دخولهم للكهف في أول النهار ، واستيقاظهم كان في آخر النهار ، و لهذا قالوا بعض يوم .

و قال المهايمي : فمن نظر إلى أنهم دخلوا غدوة وانتبهوا عشية ، ظن أنهم لبثوا يوما ، و من نظر إلى أنه قد بقيت من النهار بقية ظن أنهم لبثوا بعض

يوم ، فهم مع ما أعطوا من الكرامات يتكلمون بالظن ، فالولي يجوز أن يتكلم بالظن فيما ليس من الأصول ، و يجوز أن يخطئ .

وقال الزمخشري : جواب مبني على غالب الظن ، وفيه دليل على جواز الاجتهاد و القول بالظن الغالب ، و إنه لا يكون كذبا ، و إن جاز أن يكون خطأ."(41) ، بعد ما بين **محمد جمال الدين القاسمي** المعنى المعجمي المرتبط بالآية ، انتقل إلى تبيين مواضع معنى الآية عند **ابن كثير** ، **والمهايمي** ، **والزمخشري** ، حيث استعمال كل مفسر وسائله اللغوية و المعرفية و السياقية و المقامية في تفسير المعاني التي تضمنتها الآية . و إذا نظرنا إلى مواضع المعنى التي أخذتها الآية عند كل مفسر ، فنجد أنهم **اشتركوا في نمط القول** ألا و هو قوله تعالى﴿ **قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم**﴾. واجتهدوا في تفسير **مواضع القول** . يمكننا القول أن التفسيرات التي تقدم بها كل من ابن **كثير و المهايمي والزمخشري** ، هي تدخل في مواضع القول ، أو المعاني التي تضمنها نمط القول ، فقد كانت نظرتهم قائمة على استخراج و استنباط معطيات العبارة وليس دراسة العبارة ، أي البحث عن المعاني المضمرة التي تضمنتها الآية الكريمة ، **و منه جاز أن نقول أن دراسة نمط القول و مواضعه مرتبطة بالمعاني المضمرة التي يتضمنها القول أو العبارة .**

أما بخصوص تفسيره **لسورة يوسف** و خاصة **الآية** 36 و في قوله تعالى﴿**إني أراني أعصر خمرًا** ﴾ حيث فسرها **محمد جمال الدين القاسمي** بقوله : " أي عنبا ، تسمية للعنب بما يؤول إليه ، أو الخمر بلغة عمان اسم للعنب . " (42) فقد فسر قوله تعالى ﴿**إني أراني أعصر خمرًا** ﴾ بتفسيرين هما :

أ-التفسير الأول : تسمية للعنب لما يصير إليه بعد العصر .

ب–التفسير الثاني : ذكر تسمية العنب بالخمر بلغة عمان .

ففي التفسير الثاني نلاحظ أن **محمد جمال الدين القاسمي** ، قام بتفسير العبارة أعصر خمر و المتكونة من وحدتين معجميتين **أعصر – خمرًا** ، مستعينا في ذلك بالسياق وذلك من خلاله استشهاده بلغة عمان ، وهذا لغاية واحدة هو الوصول إلى معنى الآية الكريمة ، و كأن به يعطي لنا مواضع المعنى للآية الكريمة ، أو الكيفية التي فهم بها **نمط القول** ، و منه جاز لنا أن نقول أن لغة عمان تدخل في موضع القول أو المعنى الثاني الذي أخذه القول وفق سياقه و مقامه .

من خلال هذين النموذجين في **توضيح نمط القول و مواضع القول ومدى ارتباطهما بالمعنى**. يمكننا تبيين بعض الخصائص التداولية التي يأخذها نمط القول و مواضعه في الخطاب في بعده التداولي :

أ– دراسة القول يعتبر من أهم الانجازات التي حققها البحث التداولي ، ويعتبر وحدة أساس في تحليل الخطاب في بعده التداولي .

ب–ينقسم القول إلى نمط ، و موضع ، فالنمط فهو الشكل الذي يأخذه القول في الخطاب ، أما مواضع القول ، فهي جملة المعاني التي يتم الوصول إليها و فق سياقها و مقامها .

ج– المواضع إلي يأخذه القول مرتبطة بالسياق والمقام ، وأهم المقاصد التي ينجزها و يحققها في السامع .

د– إن الحديث عن القول مواضعه يحيلنا للبحث في نظرية الخطاب ، ونظرية المعنى ، و نظرية المقاصد .

الهامش :

1–أحمد المتوكل : اللغة العربية و خصائص اللغة العربية ، دراسة في الوظيفة و البنية والنمط : منشورات الاختلاف ، الجزائر الطبعة الأولى ، 2010، ص 21

2–Jean Dubois– DICTIONNAIRE DE linguistique sciences du langage – Larouse BORDAS – HER 1999 – P150

3– أحمد المتوكل : اللغة العربية و خصائص اللغة العربية دراسة في الوظيفة و البنية والنمط ، ص 21/ 22

4–Jean Dubois . DICTIONNAIRE DE linguistique et des sciences du langage. P150

5–جاك موشلر – آن ريبول : القاموس الموسوعي للتداولية : ترجمة مجموعة من الباحثين باشراف عز الدين المجذوب ، دار سيناترا المركز الوطني للترجمة ، تونس ، ص 51.

6–المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات– انجليزي – فرنسي – عربي – : المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم ، مكتب تنسيق التعريب ، المغرب ، سلسلة المعاجم الموحدة رقم 01، ص 46.

7–المرجع نفسه ، ص46.

8–المرجع نفسه ، ص 46.

9–المرجع نفسه ، ص11.

10–المعجم الموحد لمصطلحات التواصل اللغوي – انجليزي – فرنسي – عربي : المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم ، مكتب تنسيق التعريب ، المغرب ، سلسلة المعاجم الموحدة رقم 37، ص 53.

11–أحمد المتوكل : اللغة العربية و خصائص اللغة العربية ، دراسة في الوظيفة و البنية و النمط ، ص 24.

12–المرجع نفسه ، ص25.

13–المرجع نفسه ، ص25.

14–الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير : دار سحنون للنشر و التوزيع ، تونس ، الجزء الأول ، ص 70.

15-يحي محمد : منطق فهم النص دراسة منطقية تعنى ببحث النص الديني و قبلياته ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، 2010، ص 23.

16-طه عبد الرحمن : سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد ، المؤسسة العربية للفكر و الإبداع ، لبنان بيروت ، الطبعة الأولى 2015، ص 65.

17-المرجع نفسه ، ص74.

18-المرجع نفسه ، ص 74.

19-المرجع نفسه ، ص75.

20-المرجع نفسه ، ص75.

21-المرجع نفسه ، ص76.

22-المرجع نفسه ، ص75.

23-المرجع نفسه ، ص75.

24-المرجع نفسه ، ص76.

25-Paul Larreya- Jean Philippe Watleb - LINGUISTIQUE GENERALE ET LANGUE ANGLAISE - Armand colin 2012 – p67.

26-G- SlOUFFI – D- VAN RAEMDONCK -100fiches pour comprendre la linguistique-Bréal édition –p51.

27-طه عبد الرحمن : في أصول الحوار و تجديد علم الكلام : المركز الثقافي العربي ، المغرب ، الطبعة الرابعة 2010، ص28.

28- جاك موشلر –آن ريبول : القاموس الموسوعي للتداولية ، ص21.

29-المرجع نفسه ، ص12.

30-تم استعارة هذا العنوان من عند جاك موشلر –آن ريبول : القاموس الموسوعي للتداولية ، ص24.

31- جاك موشلر –آن ريبول : القاموس الموسوعي للتداولية ، 24.

32 -المرجع نفسه ، 24.

33-المرجع نفسه ، 26/ 27.

34-المرجع نفسه ، ص27.

35-المرجع نفسه ، ص27.

36- ر- جاكندوف – ن – تومسكي – ر- فندلر : دلالة اللغة و تصميمها ، ترجمة محمد غاليم و محمد الرحالي و عبد المجيد جحفة ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، الطبعة الأولى 2007، ص 11.

37-المرجع نفسه ، ص12.

38-محمد جمال الدين القاسمي : محاسن التأويل : ضبط و تخريج و تعليق عبد القادر عرفان العشا حسونة الدمشقي ، دار الفكر لبنان ، الطبعة الأولى 2005، الجزء الأول ، ص07.

39-ينظر : محمد البازي : صناعة الخطاب الأنساق العميقة للتأويلية العربية ، دار كنوز المعرفة للنشر و التوزيع ، عمان ، الطبعة الأولى 2015.

40- محمد البازي : صناعة الخطاب الأنساق العميقة للتأويلية العربية ، ص28.

41- محمد جمال الدين القاسمي : محاسن التأويل : الجزء السابع ، ص2695.

42- محمد جمال الدين القاسمي : محاسن التأويل : الجزء السادس، ص2362.

المصادر و المرجع

مراجع التفسير

1-**الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير** : دار سحنون للنشر و التوزيع ، تونس ، الجزء الأول

2- **محمد جمال الدين القاسمي : محاسن التأويل** : ضبط و تخريج و تعليق عبد القادر عرفان العشا حسونة الدمشقي ، دار الفكر لبنان ، الطبعة الأولى 2005.

المعاجم

3- **المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات- انجليزي – فرنسي – عربي** - : المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم ، مكتب تنسيق التعريب ، المغرب ، سلسلة المعاجم الموحدة رقم 01.

4- **المعجم الموحد لمصطلحات التواصل اللغوي – انجليزي – فرنسي – عربي** : المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم ، مكتب تنسيق التعريب ، المغرب ، سلسلة المعاجم الموحدة رقم 37.

المراجع بالعربية

5- أحمد المتوكل : اللغة العربية و خصائص اللغة العربية ، دراسة في الوظيفة و البنية و النمط : منشورات الاختلاف ، الجزائر الطبعة الأولى ، **2010**.

6- طه عبد الرحمن : في أصول الحوار و تجديد علم الكلام : المركز الثقافي العربي ، المغرب ، الطبعة الرابعة **2010**.

7- طه عبد الرحمن : سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد ، المؤسسة العربية للفكر و الإبداع ، لبنان بيروت ، الطبعة الأولى **2015**.

8- محمد البازي : صناعة الخطاب الأنساق العميقة للتأويلية العربية ، دار كنوز المعرفة للنشر و التوزيع ، عمان ، الطبعة الأولى **2015**.

9- يحي محمد : منطق فهم النص دراسة منطقية تعنى ببحث النص الديني و قبلياته ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، **2010**،

المراجع المترجمة

10- جاك موشلر – آن ريبول : القاموس الموسوعي للتداولية : ترجمة مجموعة من الباحثين باشراف عز الدين المجذوب ، دار سيناترا المركز الوطني للترجمة ، تونس.

11- جاكندوف – ن – تومسكي – ر- فندلر : دلالة اللغة و تصميمها ، ترجمة محمد غاليم و محمد الرحالي و عبد المجيد جحفة ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، الطبعة الأولى **2007**.

المراجع الأجنبية

12–Paul Larreya– Jean Philippe Watleb – LINGUISTIQUE GENERALE ET LANGUE ANGLAISE – Armand colin 2012

13–G– SIOUFFI – D– VAN RAEMDONCK –100fiches pour comprendre la linguistique–Bréal édition

14–Jean Dubois – DICTIONNAIRE DE – linguistique sciences du langage– LAROSSE BORDAS HER 1999